نجم معين

للكاتبة الامريكية
بيرل باك
ترجمة
عمر فاروق حسن

استيقظ في فجر ذلك اليوم من ايام عيد الميلاد ، ولفترة وجيزه لم يستطع ان يتذكر اين كان ثم رجعت حرارة الطفولة الى دمه النعسان — لقد كان هنا في مزرعته ، في منزله القديم ، وفوق رأسه سقف غرفته القديمه بكتله الخشبية المهشمة . لقد كان بالأمس وبالأمس فقط ، حينما اصر على العودة الى البيت على هذا الوجه ولقد نفذ عزمه على الرغم من الثورة الاجتماعية المكبوته من جانب اسرته ، فقد صاحت امته آن « ولكن يا أبي ، أتذهب للمزرعة الآن ؟ في ليلة عيد الميلاد ؟ »

وقد كان احتجاجها مصحوبا بعصب متطاير الشرر فقابلها بعصب مثله قائلا « لقد مرت سنين عديدة دون أن أطلب اى شيء منكم »

ونطق ابنه قائلا « عندي موعد يا أبي » .

فأجابه في حزم « سوف تلغي موعدك يا هال » .

واستدار عن ولديه العاصفين الى زوجته هيلين وقال لها « لقد دعت عيد الميلاد عن هذا المنزل »

فابتسمت في صبر وقالت « لقد اعتدت على تصريحاتك الكبيرة، ياعزيزي .. وبقيت الأمور على ما هي عليه تقريبا منذ انتهاء الحرب ، لكن كل شيء قد تغير ، وهذا ما لا مفر منه » .

فقال في اصرار « ان الأساسات لا تتغير ، ونحن يجب أن نعود الى كياننا كعائلة وسوف أعد السيارة في ظرف ساعه » . وكانت صيحة الأمر ظاهرة في نبرات صوته . فقد تعود على تولي القيادة أثناء الحرب . ولم يكن شأنه الآن أقل من ذلك في هذه السنين التي تجرى فيها انحسار الذرة على وجه مستمر . فقد كان معتادا على الطاعة في معمله الكبير من جانب العلماء ولم يمكث ليسمع المزيد من الاحتجاج في منزله . واذا كانوا يعلنون تمسكه بالمواطيء الدقيقة فقد تجمعوا في ظرف ساعة ، وفي سكون تام ، استعدادا للرحلة الطويله الى المزرعه .

حسنا ، لقد أطاعوه على الأقل . وها هم هنا معا ، بعيدين آميالا عديده عن مواطن الرقص الى ساعة متأخرة والشرب الكثير . وعما يصنعه من ألوان العبث المتلافة . ولقد كان ذلك يوم عيد الميلاد . وخلال هذا اليوم سوف

يستعيدهم الى جانبه مرة أخرى بالتأكيد، لأنه كان قد تقدم بطريقة ما خلال هذه الأعوام التي كان منغمسا فيها الى عمله ..

ان اسمه وشهرته، آرنولد ويليامس، العالم في أبحاث الذرة ، احد الثلاثة الأعلام في العالم ، تلك الحقيقة تعلمت عليهم .. بل تعلمت عليه الى حد ما .. فان علماء من كل البلاد كانوا يتجهون اليه طلبا للنصيحة والاقتباع ، وازاء سرعة ازدياد نمو العلم فقد اضطر الى تكريس كل وجوده لابحاثه .

كان هذا واضحا طبعا ، اثناء الحرب عندما كانت تجاربه ملكا لحكومته ، ولكن الخط الفاصل بين الواجب ونشوة سرور النجاح في العمل لم يكن بهذه الدرجة من الوضوح بعد انتهاء الحرب ..

وبينما كان يواصل السير في طريقه على عجل كان اولاده قد كبروا ، ومن المحقق ان هيلين اصبحت اكبر سنا مما كان يسمي ، فولت البهجة القديمة المتبادلة بينهما . وآمس ، في منزله القائم على بعد مسافة يسيرة من معمله في الجامعة ، ادرك فجأة انه يكون من شأن مايجري حوله ، وبالرغم من التشريعات التي تمت في آخر لحظة ومن وجود شجرة صناعية .. لم يكن الجو جو عيد الميلاد ..

لقد تذكر ان ، ابنته ، البالغة الجمال الدافقة الحيوية بعيدة عن المرح تندفع نحو التليفون ، ليجيب أهلها على الدوام فانه لم يكن أبدا الصوت المنشود ... ولكن فلس كان الصوت الذي تصمت لسماعه . آه ، يا آن ، أيتها الاجنبية المحبوبة ، لقد كان من أجلها كل شيء ما أراده من العزلة اليوم مع عائلته .

وماذا عن النجم ؟ في صباح أيام عيد الميلاد ، عندما كان صبيا ينام في هذا السرير ، كان هناك نجم معين يبدو مرتفعا فوق مخرن الغلال ، وكان يراه دائما عندما يستيقظ مبكرا عن عادته ، لكي يستطيع الاشراف على الانتهاء من عملية حلب الليل قبل أن يفتحوا الابواب الى المهو الذي تنتصب فيه شجرة عيد الميلاد . نجم عيد الميلاد عندما فكر في ذلك طوح بالغطاء وقفز من الفراش ـ يرجح ان يكون ذلك هراء ، فمن الخاثر ألا يكون النجم هناك الآن .

وعندما كان يبحث عن ملابسه العديدة في المخدع ، خطر له أنه (الى حد ما) كان ذلك النجم هو المسئول عن توجيه حياته ، فلقد ارشده الى السموات .

« ماذا تريد في عيد الميلاد يا بني ؟ » كان هذا هو السؤال الذي وجهه اليه أبوه عندما كان في الرابعة عشرة من عمره .

فأجاب « اني أريد منظارا مكبرا (تليسكوب) » .

فحملق فيه أبوه ، في حدة وفضول تنطق بهما عيناه الزرقاوان الصغيرتان الغائمتان فوق لحيته الشعثاء .

وقال « ولأي غرض » فأجاب « لكي أنظر به الى النجوم » .

فتمتم أبوه ، بدون ارتياح كما كان يبدو ولكن في صباح عيد الميلاد كان يوجد تحت الشجرة طلب لشراء منظار مكبر عن طريق البريد . وهذه هي الهدية الوحيدة التي كان يريدها ـ ومع تلهفه على حلول الليل اضطر الى الانتظار حتى حيم الظلام . وعندئذ رفع منظاره الى عينيه وامعن النظر الى النجم .

ويا لخيبة الأمل . لقد كان أكبر ، وأكثر لمعانا ، الا أنه مازال بعيدا كما كان على الدوام .

وفي اليوم التالي تطلع الى الشمس من قبيل التجربة المحضة ، ولدهشته رأى نجما فوقها ، وأدى هذا الى شراء كتاب ، للتعرف الى اسرار السماء ، وهكذا بدأ اهتمامه بالاشعة الكونية .

وها هو الآن يرتدي سروال الترحلق على الثلج ، وسترة من جلد الخراف وحذاء منطادا بالفراء وعند مغادرته الغرفة صفق الباب وراءه ، حينئذ بدا عليه الخرع ، وتمنى أن تكون هيلين قد ظلت نائمة . ولو أنه أيقظها ، فلسوف تقابله بالحلم كما كان شأنها معه في الواقع منذ أن بدأت جولاته العاصفة (وهي التي بدأت منذ زمن طويل لأن نوبات الهامه المعروفة كانت تأتيه بالليل كما كانت تأتيه بالنهار) وجعلت محتوما عليه أن ينام بمفرده فانه لم يكن يطيق اية مقاطعة أثناء اشتعاله بنظرية جديدة ولا يهدأ له بال حتى يفرغ من متابعتها . وفي اليوم الذي تمت خطبته لهيلين قال لها « عندما تتزوجيني ، فانت لن تتزوجي رجلا ، بل نوعا من ٩٠ من الوحوش » . وعندئذ ضحكت ولم ترد ، ثم حدث في أحد الأيام أثناء الحرب ، عندما كانوا يقيمون في احدى ثكنات نوس‌الاموس ، أنها نظرت اليه في تفكير ، فسألها « ماذا تعني هذه النظرة ؟ »

فقالت « من المحتمل أن تكون نوعا من الوحوش » .

ولكنه ضحك ازاء ذلك ، ولكن الكلمات عادت اليه الآن وهو يخطو خارج باب المطبخ . وكان البرد حادا قارسا ، وزاد

من شدة وطأته أن المنزل كان دافئا ، اذ كان قد وضع به مدفأة بترولية منذ عدة سنوات عندما كان الأطفال صغارا ، ولكن عندما كان صبيا لم تكن سوى صفوف ضخمة من الخشب ، وهي مازالت هناك ، على سبيل التذكرى ..

وفي أثناء سيره في اتجاه مخزن الفلال كان الجليد يتهشم تحت أقدامه، وكانت السماء صحوا، والنجوم المتلألئة تلمع خلال الهواء الثلجي ، ونظر الى أعلى ، منعما نظره في السماء ، فاهو نجمه يبدو بوضوح ، فهاهو معلق فوق حافة سقف المخزن ، ليس بالضخامة التي كان يتصورها ، ولكنه هو بالذات دون أي ريب ..

لقد صورته الأحوام اشد ضخامة وأكثر روعة مما هو عليه الآن ، أو لعله كان كذلك بمعنى خياله في عهد الطفولة ، الا انه كان هناك بالفعل حقيقة في ثبات ، كما كان بتذكره ..

ووجدت قدماه الأخدود المألوف في الممر تحت الثلج ، وبينما كان واقفا في الهواء الراكد عمره الاعجاب القديم الاعجاب بالكون ، لقد عرفه منذ سنوات خلت ، هي طريق النجم الوحيد ، لقد فقده في أثناء عجلة وثورة شبابه في السنين التي كان يعمل فيها من أجل عيشه نهارا في معمل خاص بصناعة كبيرة ، وفي أثناء عمله في معمله الصغير ليلا ، درس أسرار أشعة الشمس المنحرة ، وكان يبتهر فرصه أجازته الشحيحة ليقوم برحلاته التي كان يمح فيها الى ايشتاين في ألمانيا ورادرفورد في انجلترا ، وبين التردد والاقدام ، حال بعيدا عن هذا المكان المتواضع الذي يقف فيه الآن ليحملق مرة أخرى في النجم في صباح عيد الميلاد ، ولقد كان رجلا معتدا بنفسه ميالا للجدال الى اليوم الذي أصابه فيه الرعب وحلت به مذلة جديدة عندما تكشفت له نواة الذرة في مكان خفي في الصحراء ، طاقة لا حد لها تجمعت في شكل في متناهي الصغر لدرجة أن الأعين لاتستطيع رؤيتها ، نعم ان هذا النجم الذي حملق عليه الآن تولى هدايته في حياته ..

وماذا بعد ذلك ؟ أين سينتهي به الطريق بعد صباح هذا العيد ؟

وفجأة ارتجف وتذكر انه كان واقفا في الثلج حتى منتصف ساقه ، فقد سقط أثناء الليل هذا المسحوق الناعم الذي كان يكسو كل الفروع والأغصان، وكان الهواء الذي يهب من البحيرة باردا ثلجيا ، واستدار في تردد وعاد أدراجه الى المنزل ودخل الى المطبخ ..

كان النور مضاء عندما فتح الباب وكانت هيلين واقفة أمام موقد الغاز ملتفة في رداء الحمام الصوفي الأحمر تعد القهوة ..

وقال وهو يقبلها في وجنتها ، عيد ميلاد سعيد ، ، وسألها «هل ايقظتك؟» فقالت وهي تدلك جدها ، انك بارد كرجل الثلج ، انك لم توقظني فاني لم أستطع النوم ، ..

هل استغرق عيدالميلاد كل حواسك؟

هزت رأسها قائلة ، ، اني لا أنام جيدا كما اعتدت من قبل ، ..

واحضرت قدحين على المائدة وصبت فيهما القهوة ، وسألته ، هل تريد تناول طعام الافطار الآن ؟ ، ..

قال ، كلا ، ولكني سأتناول القهوة الآن ، ..

وجلسا ، واخذت ترتشف قهوتها ببطء في حين انه انتابه حرجة صامتة .

وقال « ما أطيب هذا ـ لقد كنت أشعر بالبرد طوال الطريق » .

وسألته « ماذا كنت تفعل في الخارج في مثل هذه الساعة ؟ » .

فأجابها « ماذا تقولين لو علمت بأنني خرجت لمشاهدة نجم ؟ » ..

فقالت « لقد مضى زمن طويل منذ كنت تهتم بالنجوم » .

ونظر اليها ، ورآها تبدو متعبة تماما بالغا هذه الزوجة الرقيقة وقال « قد كان من الأفضل لو لم تحضر للمزرعة . فلعله كان في ذلك مشقة اكثر مما تحتملين، الا تشعرين بذلك على مايرام يا حبيبتي ؟ »

فأجابته « أنا بخير ـ ولكن الأمر لا يعدو التقدم في السن على ماأظن » .

ـ « هذا هراء . انت قلقة بشأن شيء ما » .

وتهضت لكي تحضر المزيد من القهوة وقالت « لقد سمعت أن تبكي في أثناء الليل » .

فنظر اليها بذهول وقال « وماذا يستوجب البكاء من أن ؟ » .

فأجابته قائلة « انهما لا يقولان اي شيء . انت تعلم أنهما الآن لا يتفوهان بأي كلمة . فلا يدري الواحد ماذا يجري في خاطر اي شخص » .

والقت عليه نظرة حزينة غريبة لم يدر كنهها .

فقال مذكرا اياها « لقد بدت أن راغبة في الحضور الى هنا أمس ، بل لقد كانت راغبة في ذلك أكثر من حال ـ الذي كان مرتبطا بموعد رقص أو شيء من هذا القبيل » .

فأخذت تحرك قهوتها وهي تفكر وقالت « انه ليس من شيمة آن ان تسلم بمثل هذه السهولة ـ الا اذا كانت تريد شيئا ما » . فقال « هذا صحيح » فقالت :

ـ لم يحدث قط أن سلمت آن بسهولة عندما كانت ترغب رغبة شديدة في الحصول على شيء ما ولذلك فان من الواضح انه لم تكن لديها البارحة الرغبة في شيء ما

فقال مندمرا « أرجو أن تكون راغبة في الاسورة التي ابتعتها لها في مناسبة عيد الميلاد، لقد تكلفت مافيه الكفاية » .

فقالت « لم اعد أدري ماذا يريدان .. فكل فرد قد تغير على نحو ما » .. وتنهدت واخذت ترتشف قهوتها مرة أخرى ممسكة بقدحها بكلتي يديها كما لو كانتا باردتين .

وتفحص وجهها الذي كان لايزال جميلا بالرغم من شحوبه . لقد مضى زمن طويل منذ كان يراها في الصباح قبل أن تزين وجهها . فانه كان يبدأ عمله مبكرا في حين انها كانت تنام الى وقت متأخر .

فعاد يسألها « هل انت بخير ؟

فقالت « اني متعبة . ولعل هذا يرجع الى المرحلة التي أمر بها من عمري » .

فقال « اي تقهقر للمرأة » . ونهض وقبلها في وجنتها قائلا « هل تذكرين كيف تعودت على تسلق جبل

« الموت بلان » معى عندما كنا نقيس الأشعة الكونية ؟ ان هذا لم يكن منذ زمن طويل » .

وابتسمت ابتسامة باهتة ولم تجب . فمضت بشعرها محاولا مداعبتها ، فامسكت بيده وضربت عليها برفق قائلة « انى اراهن على ان هداياك لعيد الميلاد غير مغلفة » .

فقال « انك محظئة . لقد حرصت على ان يقوم « تيغاني » بتغليفها » .

فبدت عليها صدمة الدهشة وقالت « هل احضرت كل شيء من هناك ؟ » .

فاجابها « كل شيء ، وعندما قلت انى اريد تغليفها بغلاف الهدايا ، قال العامل بحدة ان تغليف التيغاني العادي انما هو تغليف الهدايا » .

فكان في ذلك ما أضحكها مما جعله يشعر بالانتصار .

وقال « أما الآن ، فساصعد لغرفة السطح لاحضار لفافاتي الثمينة كي نضعها حول شجرة الميلاد » .

وسألته « ولماذا تحق السماء وضعتها هناك ؟ » فان الأولاد لن يبقوا عينا — لقد سبق انهم كبروا » .

فقال « انها العادة ، مساء امس كنت في غرفة السطح اضع لفافاتي العالية في نفس الركن الذي كنا نضع فيه منزل عرائس آن ودراجة هال ... كم عاما مضت منذ ان امضينا عيد الميلاد هنا ؟ » .

فقالت « لم نعمل ذلك منذ ان وقعت في حب نواه الذرة » . وبدت في عينيها الزرقاوين ومضة من الحنين القديم وقالت « كم اود ان اعلم ما في الذرة من سحر وجاذبية » .

فاجاب في اصرار « نعم ، يا له من سحر » .

وتركها حينئذ وصعد الدرج الى غرفة السطح ووجد هداياه في الحقيبة الورقية السميكة اللون حيث أخفاها بالأمس . وعند هبوطه الى منتصف الدرج الى الطابق الثاني سمع صوت آن في الردهة العليا وهي تتحدث الى شخص ما — الى رجل ما بطبيعة الحال — وهي تقول « وما الفائدة من حضورى الى المدينة الليلة ؟ ... نعم ... اني استطيع القدوم مع هال — فان لديه موعدا — ولكن ماهي الفائدة ؟ لن يكون قبل منتصف الليل عندما تستطيع أن تترك عائلتك وسيكون لدينا خمس عشرة دقيقة ، خمسا ، نصف ساعة ان — وتكون — قلقا طول الوقت ، فأى خير في هذا ؟ » .

لقد سمع الالم وحده العاطفة واعتصر الألم قلبه فجاة ، اذ راها هناك عند التليفون « كانت مازالت في قميص النوم الصوفي الوردي اللون ، وشعرها الأصفر معقوصا فوق رأسها ، انها طفلة بالرغم من اعوامها العشرين . وما من رجل يحق له ان يؤذى هذه الطفلة التي أحبها ... كيف يستطيع حملها على الاصغاء اليه باسمه حتى يستطيع الدفاع عنها من هذا المخلوق ؟ .

وصاح « يا آن ... » .

وفي النور أغلقت التليفون ، ثم استدارت ونظرت اليه عيناها الزرقاوين الواسعتين المذعورتين

وسألها « ... » لوقت مبكر للاستيقاظ في صبيحة عيد الميلاد أليس كذلك ؟ » .

فقالت « لم أستطع النوم . ان البرد لشديد هنا بجوار البحيرة » .

فقال : « على أى حال حسن انك استيقظت ، اذ يجب أن نقطع الشجرة آنا وحال ثم نشذبها ونتناول طعام العشاء جميعا كما كنا اعتدنا أن نعمل . وسوف أحضر لك بعض الأغصان لتربين المنزل بها ـ ربما بعض الصنوبر ـ فماذا تقولين ؟ » .

ووضع الحقيبة الورقية البنية فوق الدرج وتقدم نحوها .

وعبرت آن الردهة لمقابلته على أطراف أصابعها وقبلته قائلة : « لقد جاشت بصدرك العواطف يا سانت كلوز اليس الامر كذلك ؟ » ثم اضافت فجأة : « انك لطيف أيها العجوز » . فأجابها شاكرا : شكرا ، حتى هذا لم أسمعه منذ زمن طويل » .

وقالت موافقة : « لم اقل لك أى شيء منذ زمن طويل فعلا ، فقد كنت بعيدا في كل مكان ما خلال هذه السنوات العشر ، أليس كذلك ؟ » وكانت تدور حول حواسه باطراف اناملها الرقيقة .

وقال ممسكا بأناملها : « انك أنت التي كبرت بدون اذني » .

وكان يفكر ، لو لم يكن قد أصر على أن يكونوا هنا اليوم لما كان هناك هذا الحوار . وكانت ستكون نائمة في سريرها ، مرهقة من الرقص ... وهلم جرا ـ ومالت برأسها على صدره بدون توقع .

وقالت هامسة : « إنني آسفة لو عدت صغيرة مرة أخرى ، آسفة لو اني لم اكبر قط » .

وضغط شعرها الناعم قائلا : « لماذا يا آن ؟ ـ لماذا يا آن ؟ » .

فقالت : « سعادة ، أليس كذلك ؟ » ورفعت رأسها وتفحصت الدموع من عينيها اللتين تطلعتا اليه في ابتسام ثم عادت الى حجرتها واغلقت الباب دونه .

فصاح في اثرها : « عيد ميلاد سعيد » . ولكنها لم تجب .

وحينئذ فتح باب غرفة حال . وهناك كان يرقد ممددا فوق السرير ولده العزيز الوحيد في الثمانية عشره ، يبلغ من الطول ستة أقدام ، وسيم ، ذكي ـ شخص غريب عنه كلية ، وسار على اطراف اقدامه عبر الغرفة وتطلع الى ابنه النائم . رجل هذا الصبي ـ صبي هذا الرجل . طويل ، رفيع ، يافع ، ذو عظام ضخمة وجلد نضر وشعر داكن بالغ الطول ـ لقد كان حال هو الذي يتلهف للحضور الى البحيرة في الصيف ، للسباحة والصيد والنزهة في القوارب . لقد أوشك على الغرق مرتين في المياه العميقة الساكنة . ففي المرة الاولى كان قد سبح الى أبعد مما احتملت قواه . وفي المرة الثانية عندما اصطدمت رأسه أثناء غوصه . ولقد انقذ مرتين ، وفي كلتا المرتين كانت النجاة على يدى ابنه . فقد رزق بحياة هذا الولد ثلاث مرات اذن ، وكانت المرة الاولى عندما خرج من بطن أمه .

والآن اصبح الغريب الذي يقود سيارته بجنون خلال الليل ، والذي يرقص رقصات مجنونة مع أشخاص غير معروفين ، ويعود الى المنزل ثملا في بعض الأحيان ، محطما قلوب والديه ، فكيف يمكن انقاذ ابنه؟ وأن يتداخل هذه الجميلة النبيلة عقلا يستحق الانقاذ ، وقد كتب له أستاذه القديم بجامعة هارفارد عن حال قائلا : « اذا استطعت انتشاله من هذه النوبة من غرور الشباب وهذا الجنون بالنبيذ ، فانه سيكون لديك رجلا » .

وفجأة فتح هال عينيه ونظر اليه وقال : « هل حان وقت النهوض ؟ » .

فاجابه : « عسيا أن تقطع الشجرة بعد الافطار » .

فاستدار هال وعاص فى وسادته قائلا « حسن ، حسن » .

ثم وقف برهة أطول محييا ما حل به من نفاد الصبر . عيد الميلاد ، والصبى يريد أن ينام . وتذكر اياما اخرى عندما جاء هال الى غرفته فى الفجر متشوقا لكى يبدأ اليوم . وكان يقطع نومه القصير وينهض من فراشه لكى يسعد ابنه .

واستدار فجأة وترك الحجرة ، وأغلق الباب ، وكاد يصفقه . صبرا . لقد تعب من محاولة التمسك بالصبر . اذ كان هال لا يتسم بشىء من ضبط النفس . وتساءل ... لماذا يرزق الرجال بأولاد ؟ .

وذهب الى غرفته الخاصة ووقف بجوار النافذة ، كان الثلج يتساقط مرة أخرى بكثرة من السماء الملبدة بالسحب الرمادية ، ولقد اختفى النجم .

كان الجو صافيا من جديد عندما ذهب هو وهال بخوضان الجليد بعد الافطار ، وارتفعت روحه المعنوية بالرغم منه ، والآن وقد اصبح جوفه بالطعام بالدافىء المعدى وقد شجعه منظر خمسال احمرار خدود هيلين ، بالرغم من أنها قد لاتكون نتيجة أكثر من حرارة الموقد الخشبى الذى أصر على ايقاده تكريما لهذا اليوم ، وتحت تأثير نوبات الحنان التى تنتابها أن لان قلبه من جديد نحو هذا الشاب الطويل الصامت الذى هو ابنه .

وقال : « عندما كنت طفلا ، كنا نمضى عيد ميلاد أبيض ، واعتقدنا أن يكون ذلك أمرا مسلما به . واعتقد أنك وأن كنتما على الدوام تريان فى الثلج أمرا مسلما فى السنوات التى كنا نحضر فيها هنا لقضاء عطلة أعياد الميلاد . اذ ليس الثلج مثل هذه الأهمية فى المدينة » وسمع خلفه وطء اقدام هال ولكن لم يتلق اية اجابة على حديثه القصير ، فتطلع وراءه فوق كتفه ورأى وجه هال الخالى من أى تعبير . لم يكن الصبى يستمع له . ثم التقط نظرة ابيه الحادة .

وسأل : « هل قلت شيئا يا أبى ؟ » .

فقال مقتضبا : «ليس بالشىء المهم» .

واستمروا فى مشيتهم . وسأل نفسه لماذا أتحدث لهذا الابن الذى لايستمع؟

وكان عنده الكثير مما يود قوله لابنه ... والكثير فعلا .

كان يتلهف لمشاركة هال شيئا من حياته الخاصة ، تمنى أن يكون المرء عالما من علماء الطبيعة فى عصر الذرة ، حينما أصبح عالم الطبيعة فجأة أهم رجل فى العالم .

وفى الماضى عندما كان العالم يعمل بمفرده فى معمله فى الجبل ، وكثيرا ما يقوم بتجارب على غير هدى وعادة بدون جدوى كان العالم لا يكاد يكون من بنى الانسان بل ساحرا ، أو رجلا شادا ، اما الآن بعد معرفة ما فى قلب الكون من طاقة فى ذلك الحين البالغ الضآلة اصبح العالم موضع الاحترام وموضع الرهبة ... فهل كان هال يحلم بمثل هذه الأشياء ؟ لم يكن هناك من سبيل لمعرفة ذلك . فليس ثمة تجاوب بين الأب والابن .

وتوقف لكى يتأمل الغابات الخضراء التى كانا يقفان فيها ، كانت الاشجار قد نمت الى حد بالغ فى الطول ، فيجب

عليهما البحث فيما وراءها عن بعض الأشجار الصغيرة .

وتساءل هال الى أين تريد الذهاب؟

فقال يجب أن نجد شجرة في حجم مناسب ، ولذا سوف نذهب الى حافة الغابة .

فقال هال انا سنستطيع ان نقطع الجزء العلوي من اية شجرة

فهز رأسه قائلا انني لاشد احتراما لأصول قطع الأشجار مران افعل ذلك ان شيخ أبي سوف يظهر صائحا بي ، انقضى على شجرة بأكملها من أجل قمتها ؟

فالح عليه هال قائلا لقد بدا الوقت يتأخر ...

ـ وفيم تعجلك ؟

فوقف هال وسط الجليد قائلا يا أبي انني اريد العودة الى المدينة في الساعة الثامنة مساء .

فاستدار ووقف مواجها ابنه وقال لقد طلبت من عائلتي شيئا واحدا بمناسبة هذا العيد، وهو الهدية الوحيدة التي اريدها حقيقة ـ وهو أن نقضي اليوم معا هنا ، واليوم يشمل المساء وسوف تحل الساعة السادسة قبل أن نكون قد انتهينا من تناول العشاء ، ثم سيكون أمامنا الاجتماع حول الشجرة .

ورأى نظرة غريبة في عيني هال ـ رأى تمردا مكبوتا ، اذ كان الصبي يحاكمه مثل هذا الاحساس ، فلماذا لا يعلن عصيه ؟ لقد حدث مرة عندما كان هو نفسه في الثامنة عشرة من عمره أنه تشاجر مع أبيه بالكلام في مثل الأمر ، ثم بالايدي لقد كان ذلك بسبب أحد الايام وكان من أيام الصيف عندما أراد الذهاب الى المعرض الاقليمي ، ومنعه ابوه من ذلك اذ قال له أبوه بخشونة ان العلف صالح للقطع ، فلن يذهب أحد الى أي مكان . فقال انني ذاهب . وصاح ابوه فلتحاول ذلك وحملق كل منهما في وجه الآخر وعلى حين فجاة زمجر ابوه قائلا اذا كنت تشعر في نفسك بما يدل عليه مظهرك فتصارع ولنرى من هو اقوى بأسا ولقد تماسكا وتصارعا كالثيران، الشاب والكهل . وطرح أباه ارضا . ووقف يرقب أباه اثناء نهوضه على قدميه ، والكبرياء والخجل يتقاسمان قلبه . وقال ابوه باكتئاب حسن . سوف اقوم بالعمل بمفردي فقال « انني سوف لا اذهب » . وعمل الاثنان معا حتى الى حلول الساعات الطويلة الى الغروب ...

اجل لقد كان هذا الصبي ـ هو نفسه ـ شخصا يستطيع ان يفهمه . فلماذا لم يقدم هال على تحديه ؟

أما هال فقال « انك الرئيس المطاع، واعتقد أنك ستكون الرئيس على الدوام » .

فحدق في وجه ابنه الساخط وقال « بحق الشيطان ماذا تعني بذلك ؟ » .

فأجابه ليس سوى ما قلته الآن ـ انك الرئيس ، لقد كنت الرئيس الكبير منذ الحرب ، ألم تكن كذلك ؟ قائل ذرى ..

فأخذ يحملق في هذا الشاب العملاق الذي كان ينظر اليه شزرا ، ثم سرى الغضب في بدنه سريان النار ، ولطم ابنه على فكه لطمة قوية متقنة اثارت دهشته وفي نفس اللحظة تبين احساسه بالكبرياء ... كبرياء وضيع اصابه بالذهول وضغطت يده . وصاح متلعثما « انني لم أقصد ذلك يا هال ولست أعلم ما الذي دهاني ، ولكنك ناديتني باسم

شرير - ومع هذا ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك » .

وجذب هال منديله من جيبه ومسح وجهه .

وسأله « هل تعرف ؟ فأجابه « نعم قليلا .

فقال الأب « حقا . انه كذم بالغ .. وما الذي حملك على أن تدعوني بهذا الاسم يا بني ؟

ـ انه حقيقة ما أنت عليه . أليست كذلك ؟ نوع ممتاز من المتعهين في القتل .... فصاح « كلا » .

ومسح هال المنديل الملوث بالدم ، وأطبقه ثم أعاده الى جيبه ، وقال « حسن .. لنقطع شجرة عيد الميلاد » .

فقال « هال ، انني لا أستطيع أن أترك ذلك عند هذا الحد » .

فصاح « لقد قلت حسنا . حسنا . فأجابه « حسنا اذن ..

وعاوده الغضب ، فمجهم وجهه ومضى يسير بخطوات واسعة متقدما ابنه حتى قطع خمسين خطوة . ثم وقف امام شجرة صنوبرة رشيقة ، وقال « هذه هي شجرتنا » .

فقال هال « سأقوم بقطعها » . ورفع الفاس وهوى بها ثلاث مرات على جذع الشجرة ، ولكنه في كل مرة كان يخطىء المكان الذي هوت عليه في المرة الاولى ثم ألقى بالفاس وقال « انني أشعر بدوار يا أبي » .

فقال له « دعني أرى وجهك » ووضع يده تحت ذقن ابنه وأخذ يفحص الكدم الذي بدأ يرداد لونه سوادا وقال فجاه « أود أن أسألك الصفح عن تصرف كهذا في يوم عيد الميلاد .

فأجابه هال « ليس ثمة ما يدعو الى ذلك فقد وجهت اليك اهانة » .

فأجابه في اصرار وهو ما لا استحقه ولكن فلنسترح ... وسأقطع الشجرة بنفسي » وبأربع ضربات متقنة سقطت الشجرة وصدر عنها صوت يشبه الى الأنين الطويل .

ورفع مؤخرة الجذع ، في حين ان هال أخذ بطرف قمتها . وحملاها في صمت مترسمين خطاهما عائدين عبر المرج الى الشرفة الأمامية للمنزل .

وقال هال « سوف أرسل الثلج عنها » .

فقال أبوه « لندخل المنزل لنتناول قسطا من الدفء اولا » .

وقادهما الطريق الى المطبخ . وكانت الحجرة دافئة يملأها عبير نبات «المريمية» ورائحة شواء الديك . وهتفت هيلين في ابتهاج « اهلا بكما » . وكانت منصرفة الى وضع الريد على الديك في الصحن موردة الوجه ، وقد تهدلت خصلات شعرها الفضية . واستمرت في الكلام قائلة « لايوجد موقد مثل هذا ، وانني لاعجب كيف صبح عزمنا على هجر موقد الخشب » .

فصاح « انظري حتى يكون لديك موقد ذري » ففي دقيقتين اثنتين يكون ديكك قد نضج ، وما علينا سوى الجلوس الى المائدة والضغط على أحد الأزرار » وبعد تبادل حديث قصير المدى يكون الوقت قد مضى وادا بالطبر معدا للتقطيع » .

ولم ينطق أحد بكلمة ردا عليه وكان اذ ذاك يخلع حذاءه ، فلم يلاحظ الصمت وكانت آن منصرفة الى تنظيف أواني المزرعة القديمة الفضية .

وسأل هال : « اما من مكالمات تليفونية ؟ » فاجابته آن : كلا . ثم نظرت اليه وصرخت قائلة : « مادا حدث لوجهك ؟ ؟

ورددت هيلين قائلة : « وجهك ... » واطلقت باب الغرفة قائلة : « مادا جرى؟ انه لمخيف » .

وقال آرنولد بحسرة : « لقد صرنا » .

ووقف وملأ قدحا وشربه .

وقال هال : « لقد احسنت أبي » .

وجلست آن على مقعد المطبخ قائلة : « يا الهي ، يا الهي . مادا حدث لنا » .

فقالت آن : « هدية عيد الميلاد » وضحكت في عصبية واخفت وجهها بين يديها .

فصاح بها : « اسكتي يا آن ، اوقفي هذا الضحك . اني اقول لك اوقفيه » .

وامسك بكتفيها وهزها . فرفعت وجهها ناظرة اليه يتنازعها الضحك والبكاء ولم يعرف ايهما كان يغلب عليها . فقالت له :

ـ « هل ستضربني انا ايضا يا أبي؟ هل اصبحت الآن من هذا الصنف من الرجال ؟ »

فتراجع الى الخلف متسائلا : « مادا تعني ؟ وتطلع اليهم من وجه الى آخر قائلا : « مادا يعني اي واحد منكم ؟ »

وتولت آن الاجابة . فقد كانت هي الصارمة ، الصغيرة الصارمة التي حاجته وعصته يوما عندما كانت في السابعة من عمرها وكل عبدل كان مرغما على تاديبها بالضرب لتجاوزها الحد في عنتها لأنها رسمت بعض صور الاغنام والزهور على اوراق معادلاته الرياضية . ولمرة وحيدة ظلت آثار اسنانها الصغيرة ماثلة على ابهامه .

وقالت آن في تؤدة : « انا نعرفك، فلقد تغيرت . ولقد اصبحت غريبا عنا » .

واحد يتأمل في هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم . ولمرة وحيدة شعر بانه عديم الحيلة والتصبر وانه ليس امامه سوى البحث عن مهرب ، فكر في أن يطير الى اي مكان لكي يهرب من امامهم . ولماذا ترك ما كان ينعم به من راحة في معمله؟ الا انه لا يستطيع الهرب منهم ، أينما كان . فقد كان يحبهم . يحب كل واحد منهم على وجه يختلف عن الآخر ويحبهم جميعا فوق الطاقة ... والآن يتعين عليه ان يواجههم كما سبق ان واجه ما في حياة عالم الطبيعة من قرارات مرعبة .

هل يتعين ان يتابع هذه المعلومات ايضا الى اقصى غاياتها . كما سبق له أن تابع البحث الخاص بالطاقة الكامنة في نواة الذرة ؟ لقد مرت به اوقات كان يتوق فيها الى الهرب مما تنهى اليه هذه المعلومات الا انه كان قاسيا مع نفسه ولم يكن ثمة من مهرب لرجل العلم .

وحتى اثناء معرفته ان طاقة حقيقية تستطيع ان تفني العالم ، فانه تعقب المعرفة كواجب يتعين عليه اداؤه فهي وسعها اذا استعملت استعمالا صحيحا أن تؤدي الى الحياة بدلا من الموت . وعلى نحو غريب كان الحب شبيها بذلك . قوة للشر او للخير ، فكل شيء يتوقف على المخلوق البشري ... لذلك كيف يكون هؤلاء الثلاثة غرباء عنه الآن في حين انه كان يحبهم الى هذا الحد ؟ ..

في صباح هذا اليوم، يوم عيد الميلاد، كان لا يشعر الا بالحب دون سواه . فماذا يستطيع أن يقوله ليحملهم على ادراك ذلك ؟

وجلس الى مائدة المطبخ واحد ينظر الى وجه الى آخر . لقد كانوا يراقبونه فجعل نفسه يبدو لطيفا أمامهم . وفي النهاية ، رفع احتياره على وجه آن من بين الثلاثة وقال « يا آن انت صادقة مثل نجم عيد الميلاد ، واني لأقدر ذلك، وانت تقولين انني غريب عنكم ، عن عائلتي ... في حين أني طول الوقت كنت أفكر في أنكم انتم الغرباء ، انت وحال ، وحتى انت يا هيلين . لقد شعرت بالضياع هنا ، ولكني شعرت بالضياع لمدة طويلة ـ في منزل » .

فاربكت آن ورأى ذلك فجعب عليه أن يكون أشد نبلا وقالت « لقد كنت مشغولا يا أبي » .

ورافقها قائلا « طبعا كنت مشغولا وانتقلت عنكم أكثر مما ينبغي وشغلت اكثر مما ينبغي بما كنت أظنه واجبي العمل المنوط بي . ولكني لا أستطيع العيش بدونكم يا اعزائي مهما يكن شأني » .

وكان توافا لأن يفهموه ، ولكنه اذ تفحص وجوههم ، رآهم ما زالوا على حذر ... اذ لم يعرفوه كما كان يبدو الآن . ثمة ذكريات أخرى كانت ترسم عقولهم ، وكان في وسعه ان يحزر ما يجول بخاطرهم وهو أنه يعمل على اظهار حبه لهم محاولا اكتسابهم مرة أخرى اليه بالتدليل على أنه مازال الأب المرح الرقيق القلب والروح والحبيب المشبوب العاطفة .

ولكنه لن يلجأ الى الدفاع عن نفسه، فوجه خطابه الى آن مرة أخرى قائلا « استمري في الكلام بصراحة وصدق.. لماذا تشعرين بأنني غريب ؟ » .

ولكن وجهها الجميل الصغير بدا محكم الاغلاق دونه وقالت « ان الناس يسألونني عن شعوري ازاء أب هو ... هو الذي صنع القصة الدرية . ويسألونني عما تصنعه الآن » واجبت بأنني لا أعرف ، لأني لا أعلم ، فانك لا تخبرنا عن شيء على الاطلاق » .

وتدخل حال قائلا « لا تلومي أبي بشأن القصة . فمهما يكن ما قام به في هذا الشأن فانا أعتقد انه كان يتعين عليه أن يقوم به ، وفضلا عن ذلك لقد انتهى وتم هذا منذ زمن طويل » .

وتكاثف في المطبخ الكبير ، الدافيء، الروائح اللذيذة لأغصان الصنوبر ولشيء الديك . أما في الخارج فقد تغير الجو ، اذ بدت السماء تكفهر مرة أخرى وبدأ الثلج يتساقط في الهواء الساكن بدفء كبيرة ناعمة . فكان المطر يبدو في المظهر التقليدي لعيد الميلاد شأنه شأن الديك الموجود في الفرن، والشجرة الطريفة التي ما زالت تنتظر في الشرفة .

ولقد ذكر آنه منذ طفولته كان المطر يبدو كما هو بعينه في كل عيد ميلاد الا أنه كان يوجد اليوم بالمنزل شيء لم يكن له وجود قط من قبل . لقد حل نوع من الخوف واستقر عن نفسه ، خوف بشري من مستقبل ـ مخيف ولكنه محتمل الوقوع ـ وما ذلك الا نتيجة ما قام به هو ورملاؤه العلماء .

واذا كان الخوف قد حل هنا ، أفلم يكن قد حل في كل منزل آخر ، وفي كل قلب آخر ، كسر مكتوم وشبح غامض وهو الذي وصل الى اكتشاف مفجرة قد عجز عن ادراك من بحثهم في أمرها ، انهم لم يعرفوا سوى الخوف

ورفع رأسه قائلا « دعوني احاول، دعوني أحاول أن أوضح حقيقة أمري

فاني اعتقد بانى ادرك السبب فى خوفكم منى » .

ولم تستطع آن أن تحتمل ذلك فقالت « يا أبى ، انا لسنا خائفين منك فعلا ، ولكن لم يعد أحد يشعر بالأمان الآن — ولهذا فاننا نهيم على وجوهنا — انا لانريد التفكير فى الأمر ، ما من أحد منا يفعل ذلك ... ولذلك نمضى فى انطلاقنا فحسب دون تفكير » .

واحنى ورجته الشفقة به فقالت « انى أعلم يا أرتولد انك لا تملك من الأمر شيئا » .

وقال فى النهاية « انى أنا أيضا اشعر بالخوف ، فالخوف الذى تستشعرونه هو خوف اشاركتم اياه » . وكانوا يستمعون اليه باهتمام لم يكن بادیا فى استماعهم من قبل . فقد كان يقول شيئا جديدا .

وسألت آن « هل انت خائف من نفسك ؟ » .

فقال فى عزم وقوة « كلا ، فانى أعرف نفسى . نعم انى تغيرت ، ولكن ليس كما تظنون . فما من أحد يستطيع اكتشاف الأشياء التى اكتشفتها دون أن يتغير ، ولكنى رجل متواضع الى حد لم أبلغه من قبل . فانا أؤمن بالله ...

ونطق بالكلمات فى بساطة وهو يدرك دلالتها . فهو لم يسبق له أن نطق باسم الله من قبل على الاطلاق ، بل كان يزهو بالالحاد ومشايعة الدهريين .

ومضى فى كلامه محاولا الايضاح دون اثارة العواطف « قد لا يكون الله الذى كان يعبده آبائى ، ولكن أجل ، أنا أؤمن بالخالق الأبدى خالق السماء والارض . وكيف أستطيع ألا أؤمن ؟ لقد واجهت الخليقة وهى تأخذ مجراها فى قلب الذرة — غير مرئيه ، ولكنها مكتملة الأعراض . ولها من القوة والطاقة ما لا سبيل الى قياسه !!! وأنا أؤمن بما لا أستطيع ان أراه » .

وكانوا لا يبدون حراكا حتى لكأنهم كانوا لا يتنفسون . وخطر له اذ ذاك أنه لم يتحدث اليهم مطلقا من قبل عن أفكاره فى المسائل الدينية . فقد مرت أيام السنين التى قضوها معا وهى لاتعدو الشئون السطحية للحياة ، ويحتمل أنه كان أشد خجلا مما ينبغى لكى يكشف الحقائق المستورة فى حين أنهم كانوا يشدون الحقيقة . كانوا ينصتون اليه فى ارتياح واسترخاء ، آن جالسة على الأرض ويداها متشابكتان فوق ركبتيها فى حين أن هال كان واقفا مستندا الى الباب ، ويداه فى جيبه ، وكانت هيلين جالسة الى جانب المائدة مطاطئة الرأس . كان يعرف أنها تستمع اليه ولكن فى ارتياب . هل يحتمل ذلك ؟ يحتمل أنهم جميعا فى ريبة منه .

ثم تردد وحاول أن يضحك قائلا : « تبدو اقوالا خطيرة أليس كذلك ؟ قد أكون مخادعا لنفسى ... » وترك الكلمات تتعثر .

وقالت هيلين فجأة « يجب أن أزود الديك بالدهن مرة أخرى » .

وخامره الشك ، من النظرة التى علت وجهها فى أن الموقف كان أكثر مما تقوى على احتماله . وانتظروا ريثما فتحت الباب الحديدى للفرن ، وراقبوها عندما غمست ملعقة كبيرة فى الدهن السائل وصبتها على الطير الكبير . فدار فى خاطره أنه على هذا المنوال اصبحت اليوم الأمور الكبيرة والصغيرة تختلط بحياتهم بحجم عيد الميلاد والمخاوف الدينية .

وملأت كوبا من الماء البارد وشربته

ثم جلست من جديد الى المائدة ، وقالت آن : « استمر يا أبي » .

فقال بحدة : « انني لا أعرف كيف استمر الآن ، حقا انني كنت بعيدا لمدة سنين وحتى على الرغم من أنني أنام وآكل في المنزل وفي معظم الأوقات — الا انني كنت في مكان آخر ، وقد لا أستطيع العودة ، وقد لا ألتقي أبدا مرة أخرى لقاء حقيقيا . أنتم الثلاثة وأنا .. انه لمن المرعش أن يكون المرء عالما .. حياة موحشة ، فاننا لا نقوم بأي اتصال الا فيما بين الواحد والآخر في عالمنا الخاص . ولهذا فاننا نواصل الدهاب الى المؤتمرات لمحاولة العثور على قوم يتحدثون بلغتنا على من نستطيع التفاهم معهم بلغة المعادلات .... عليكم أنتم الثلاثة أن تعاملوني في منتصف الطريق » .

فقالت آن في صوت منخفض : « ولنفرض أننا لا نستطيع ذلك » .

فقال في كآبة : « حينئذ أظن انه سوف يتحتم على أن أمضي في طريقي وحيدا » . وعندها قامت هيلين واتجهت نحو النافذة ووقفت هناك تراقب الثلج المتساقط ثم قالت : « انا جميعا نعيش في العصر الذري معا ، وكل ما في الأمر أنك أدركته قبلنا » .

فقال شاكرا : « ان هذا الادراك مرهف من حاسبك يا عزيزتي » .

ودق جرس التليفون ، فخرج هال الى الردهة ليجيب عليه، ولبثوا ينتظرونه وسمعوه يقول : « انى لا أعرف ما اذا كنت قادما ، وسوف لا أعرف لفترة أطول من ذلك .. سوف يتأخر حضوري اذا كنت سأحضر ... » .

وعاد الى الحجرة ، والقى بنفسه فوق السجادة ذات الصوت الخشن الطويل الموضوعة أمام موقد المطبخ ، وعقد يديه تحت رأسه محملقا في السقف ، وقال : « استمر يا أبي » .

فقال لابنه : « انى لا أستطيع الاستمرار ، انكم يجب ان تقبلوني عن ايمان وثقة بي ، فان لكم أن تثقوا بي مهما أفعل كما ان لكم ألا تثقوا وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنني رأيت رؤيا صادقة وشاني في ذلك شان الرجال الأقدمين الذين تبعوا النجم — أولئك الرجال العقلاء . ولقد آمنوا بأن طفلا سوف يأتي بعهد جديد افضل سبيلا ... وهذا ما أؤمن به » .

فقالت هيلين : « ولكن كثيرا من الناس كانوا في خوف من ذلك العهد الجديد أيضا » .

فقال شاكرا مرة أخرى : « انت على صواب مرة أخرى » .

وكانت اذ ذاك تطل خارج النافذة وعندها ذهبت الى صندوق الخبز ووجدت كسرة جافة فأخذت تفتتها ثم فتحت النافذة ووضعت الفتات على اطارها الخارجي وقالت : « انني أرى طائرا منفردا من طيور الصافية وقد تأخر عن أوانه ، واذا بأن تذكر القصة القديمة فتقول : « لقد حاول هيرود أن يقتل الطفل فهل تذكر ذلك ؟ » .

فاستدار اليها وقال : « لقد أراد أن يوقف سير العهد الجديد . ولكن ما من أحد يستطيع ذلك — ما من أحد وما من شيء — لم يستطع هيرود أن يقتل الطفل .. ونحن لا نستطيع تدمير النواة المتلألئة للذرة . انها خالدة ، انها موجودة . وعلينا أن نتعلم كيف نستخدمها — للخير وللخير فحسب » .

وبهض واقفا في قلق واخذ يسير في الحجرة روحة وجيئة بين النافذة الجنوبية والنافذة الشمالية في حين ان الثلج

الأبيض كانت تدفعه الريح الى الألواح الزجاجية ، وكان المطبخ الكبير القديم يمتلىء بعرض المنزل المتجبي السيال .

وشرع يفكر بصوت عال قائلا : كم أود لو أن الامر بدا بطريقة مختلفة ـ اثناء السلام بدلا من أثناء الحرب . أود لو أني استطعت اصلاح المدن وتدفئة المنازل وان أسعل الى اتمام امداد وقود لآلات مدهشة حتى ولو لم تكن قد اخترعت الى الآن ... ولكن يبدو ، انه لم يكن في الاستطاعة ان يبدأ الأمر على هذا الوجه فقد كان علينا قبل كل شيء أن نصنع رجلا أحط من النوع الانساني من أن يقوم بتدمير العالم

وتوقف ثم نظر اليهم وقال : « هل تفهمونني ؟ كان من شان هتلر ان يبقى علينا . فقد كان يسعى وراء القبلة أيضا ، ولم تسبقه الا بعده شهور لا غير » .

وعاد يذرع ارض الحجرة روحة وجيئة قائلا : « ان الشيء الوحيد الذي يحتفي في الحياة هو الصنف المنحط من النوع الانساني . انني اثق في الطاقة الكامنة في الذرة ، وبوسعكم ان تعرفوها وتستعملوا استخدامها ، وهذا أمر يمكن التنبؤ بوقوعه . وأنا اثق في حيل طيب تقني بالله . وأما المنحط من النوع الانساني فلا . انه العدو الوحيد امامنا ، وهو قد يكون قابعا بجوارنا فصلا عن وجوده عبر البحار بل انه قد يكون حيا في شخص واحد منا ـ حتى في شخصي انا » .

وتوقف امام آن ولكزها باصبعه الكبير قائلا : « وهذا هو السبب في انك تخافين مني » .

وسقطت يده وقال : « اما والله يا حبيبة ـ انه ليجب ان تخافي مني . فقد كنت خائفا من نفسي هذا الصباح » . ثم التفت نحو هال وقال : « لماذا ضربتك يا بني ؟ » .

فقال هال بصوت مكتوم : « فلسباس ذلك لأني أيضا فقدت وعيي في تورتي عليك » .

فقال أبوه : « اني لا أستطيع ان انسى . فانا كذلك انطوي على شيء أحط من الصفة الانسانية » .

لقد كان يحدث نفسه بصوت عال ، معبرا عن روحه بكلماته في صباح هذا العيد للميلاد ولكنهم كانوا منصتين فقد كانوا يعرفون ما يتحدث عنه ـ حتى ولو كان فوق ما يحتملونه ومدت هيلين يدها اليه فأمسك بها ، ووضعت آن رأسها على ركبتها وهي قاعدة القرفصاء ورأى جسدها يرتجف . فهل كانت تبكي ؟ لم يكن يدري .

وقفز هال من مكانه على الأرض ووثب على ظهره قائلا : « كفى كلاما . أظن باننا نفهم كل منا الآخر قليلا ، على أي حال ... وخير لنا يا أبي أن نقوم بتصييب الشجرة . سأحرها الى غرفة الجلوس من الباب الخارجي » .

وقالت هيلين : « وأنا سأبحث عن زينات عيد الميلاد » .

وهي اثناء دعابتها توقفت وقبلته في خده . ولكن آن ظلت جالسة القرفصاء على الارض محمرة الرأس . فنظر اليها ثم ذهب الى النافذة وتطلع الى الخارج . وكان الثلج قد وقف نزوله فرأى خطوطا زرقاء تبدو من جديد خلال سماء الشتاء الداكنة . فقال في نفسه انه ليوم منقلب ، ولما يمض منه سوى بضعة كان قد بدأ يظهر عليه تأثير النهوض مبكرا حتى ولو كان ذلك لرؤية نجم . ثم كل هذه العوامل المضطربة في محيط أسرته

ـ من يدري الى اى عمق تعلقت ؟ لقد اصاع من الزمن أكثر مما يستطيع استرداده في يوم احد .

ثم رفعت ان رأسها وبدات تتكلم : « لقد اردت منذ عدة أسابيع أن أقول لك .... انني في أقصى حالات التعاسة » .

فشعر بطعنة يقهر في صدره ـ اذن فهو لم يفشل كل الفشل ـ وقال : « أخبريني عن سبب تعاستك يا آن » .

فقالت : « لقد وقعت في براثن الحب » فجذب الوسادة وجلس عليها ليكون في متناول يدها اذا مدتها اليه .

وقال بصوت رقيق : « ولكن هذا رائع » .

فقالت : « ليس الامر كذلك . فلقد أحببت شخصا لا يحبني » .

فقال حازما : « لا يمكن ذلك . فانني أعتقد انه لا يوجد على وجه الأرض رجل لا يستطيع ان يحبك . حتى لو كان أعمى لا يستطيع أن يرى طلعتك » .

فضحكت في قصور ثم اعتمدت على يدها ونهضت متثاقلة حتى وقفت على قدميها واقبلت نحوه فوضعت خدها على قمة راسه بحيث لا يستطيع أن يرى وجهها

وقالت : « انه لا يحبني بالقدر الكافي . بالقدر الكافي لكي يضحي باي شيء من أجلي ـ دائما بالقدر الكافي لكي يصلني ـ ومالي ذلك » .

فقال مرددا : « وما الى ذلك . ليس هذا بالقدر الكافي . اني أتفق معك في ذلك » .

فقالت : « كلا . لاني أحبه حبا بالغا ولهذا يجب ان تكون النهاية كل شيء او لا شيء ... انه متزوج يا ابي ولذا فالنهاية لا شيء » .

فأبدى موافقته في تجهم قائلا : « هذا أمر كئيب ، هذا بالغ الكآبة » .

فانهارت تحت تأثير حنانه وصاحت واحدة تبكي دون أن يصدر منها صوت كما هو شان القلب المحطم حين يبكي كلا لم تكن طفلة ، فان الطفل يبكي بصوت مرتفع ...

وضمها ، منطرا . ولم يستطع ان يلقي اليها ما يسري عنها من العبارات المالوفة .

ـ أنت ما زلت في العشرين من عمرك ـ هناك رجال آخرون يتسمون بالشباب والوسامة ـ هذا ـ وف يزول يا طفلتي هذا سوف يزول ـ انه لن يطق الا بالصدق .

ورفعت وجهها الحائر المشدوه قائلة : « هل سوف يتاح لي يا ابي ان أتعلب على ذلك ؟ » .

فقال : « أبدا . ان المرء لا ينسى ابدا هذه الأمور الكبيرة . انها تبقى في باطنك . سوف تجيء أمور أخرى ظروف أخرى للحب . وسوف تعيشين فيها أيضا . فهذا محتوم علينا اذ لا سبيل الى الهرب من الحياة .

فسقط راسها على كتفه مرة أخرى ولكنها لم تكن تبكي الآن . وشعر بالالم يسري في قلبها الا أن عقلها نشط للعمل . وارادتها أخذت تستجمع قواها ثم جلست واصلحت من شعرها .

وسألته قائلة : « ماذا كان عساه ان يكون مصيري لو لم تكن قد حملتنا على المجيء الى هنا لقضاء عيد الميلاد ؟

فاجاب : « أخبريني انت » . قالت : « لقد اعددت خطة للهرب ـ معه ـ لقضاء عطلة نهاية الاسبوع . وهذا الصباح لم أستطع ذلك . فلقد سمعتك حين استيقظت وخرجت ودخلت الى الغرفة

وراءك وانت تخوض الثلج وتعبر هناك عند مخرج الحبوب فترة طويلة » .

فقال « لقد كان على أن أرى النجم مرة أخرى . . فساءلت « النجم ؟ » .

فأصغى اليها حينئذ بينما كان لنجم عيد الميلاد من شأن ومكانة لديه حين كان طفلا في وقت ما هنا في هذا المنزل القديم . وكيف انه بالأمس في المدينة احس بحنين لا يطاق الى العودة لكي يتزود مرة أخرى بتحديد اتجاهه بفضل النجم .

فانزلقت عن ركبته ، واذا ، لم تعد طفلة اذ قالت « هذا ما أحتاج اليه — أن أحدد اتجاهي » .

فقال « انها حاسة تقدير القيم ، التفرقة بين ما له اهمية وما ليست له أهمية » .

وكانت قد سارت الى النافذة أثناء كلامه ثم وقفت هي الاخرى تتطلع الى الخارج وتتأمل منظر الثلج واذا بها تقول « لا تخبر أحدا بأمري يا أبي » . فكان لقولها وقع الصدمة في نفسه وقال « كيف يسوغ لك التفكير في اني خليق بان أفعل ذلك ؟ » .

فقالت « لقد ظننت انك قد ترى أن تقول شيئا لأمي » . فسألها « ألم تخبريها ؟ » .

فقالت « كلا ، فان لديها ما يكفيها مما يشغل بالها » .

فقال « هل يتعلق ذلك بشيء لا أعلمه ؟ »

فقالت « انها تعتقد انه ليس ثمة من يعلم الأمر ولكن الطبيب أخبرني » .

فأحس بالبرد يسري في بدنه وقال « كان من الواجب أن أعرف في الحال يا أن » .

فقالت « لم تكن تريد أخبارك أنت بالذات ، ولا أخبار احد هنا الى ما بعد انقضاء عيد الميلاد . ولهذا أخبرني الطبيب ، فقد قال انه كان لا بد من ان يعرف بالأمر احد ما » .

فقال مرددا في دهشة « لم تكن تريد أخباري ... ولكن كان يجب على الطبيب ألا يدعي لرعيتها » .

— « انها لم تسمح له حتى باجراء الاختبارات الا بعد انقضاء عيد الميلاد، ولهذا السبب أخبرني — في حالة ما اذا شعرت بشيء في هذه الاثناء » .

فابدى تأله قائلا « يا لكل هذه الأبواب المغلقة بيننا .. » وعادت اليه ومدت يدها فأمسك بها ليستمد منها بعض العزاء . فقالت « لقد فتحت اليوم بابا يا أبي — وان بابا واحدا مفتوحا فيه ما يساعد ، فموسعنا الآن ان نكون على اتصال فيما بيننا » .

فقال « ولكن هل ستفعلين ذلك ؟ » فقالت « سأفعل ... اني أعد بذلك » .

وابتسمت له ابتسامة رزينة وحزينة . فان شيئا من صغارة الشباب كان قد ولى فعلا عن وجهها .

فقال « سوف يصلح حالك ، ليس مرة واحدة ، ولكن رويدا رويدا ، يوما بيوم » .

فأجابت « أجل ... » ثم توقفت وأخذت تتشمم نغمة ثم صاحت « اني اسمع الديك ... » .

وعدت بسرعة نحو الغرن ، فعلت وجهه ابتسامة عريضة وسار متعمدا الى الخارج وفي الردهة صاح مناديا « يا هيلين ، أين أنت ؟ » .

ومن بعيد ، من خلف باب موصد ، أجابت بصوت غير واضح .

وهتف هنال من غرفة الجلوس « انها بالطابق العلوي » .

وكانت الشجرة قد نصبت وثبتت في مكانها وكان يدق المسمار الأخير فيها قائلا : « لقد صعدت لتحضر زينات الشجرة ، ولم تعد . ولعلها لم تتمكن من العثور بعد على الذي يزين القمة ، فانها كانت لا تستطيع ان تتذكر اين وضعته » .

ولم ينتظر حتى ينتهي حال ، بل صعد الدرج قفزا واسرع الى بابها ، فوجده موصدا ، وحاول فتحه مرة اخرى ثم قال : « افتحي لي يا هيلين » .

فقالت : « دقيقة واحدة يا عزيزي » كان يتسمع الضعف في صوتها وهو يحترق حشب الباب ، ولكن في اقل من دقيقة ادارت المفتاح وفتحت الباب ، فبدت في ضعف واضح ، كما بدت عيناها في اتساع كبير في وجهها الابيض .

وصاح : « ما الخبر يا عزيزتي ؟ » واحدها في ذراعيه فالتصقت به دون ان تجيب .

فسألها : « لماذا صعدت هنا وحدك وأوصدت الباب ؟ »

فقالت في همس بعد هنيهة : « اني لا اريد الافضاء اليك ، فلست اريد ان افسد احتفالنا بعيد الميلاد » .

فقال : « انه يوم الافضاء ، انه يوم الثقة » .

فقالت في تردد : « لست ادري فان بي علة ما » . فالقى نظرة على الوجه الحبيب الملتصق بصدره وكانت العينان مغلقتين فقال : « لماذا لم تخبريني ؟ »

فاجابت : « لم استطع ذلك فقد كنت بعيدا بعدا ساحقا » .

فقال : « هل ذهبت الى الطبيب من تلقاء نفسك ؟ » فاجابت وهي تنهد : « نعم » .

فسألها : « وماذا قال ؟ »

ـ لم تستوف الاختبارات

ـ هل ما زلت بعيدا الآن ؟ فقالت : « كلا » فقال :

ـ أبدا بعد الآن ؟ فقالت : « أبدا » فقال :

ـ سوف اذهب معك الى الطبيب غدا وسأبقى الى جانبك .

فرفعت اليه وجها قد أشرق بغتة الضياء وهتفت : « أحقا يا آرنولد ، ستفعل ذلك ؟ »

فقال : « ومن المحتمل ألا تكون ثمة أية علة او الا يكون ثمة شيء لا يتيسر علاجه »

ـ الآن فقط أستطيع الاعتماد بان هذا محتمل .

وتطلعت اليه وقد بدت في عينيها دلائل تجدد الثقة فمحى رأسه ماخوذا بعاطفة أبعد غورا مما عهده منذ سنين لقد عادا الى الاتصال الوثيق مرة أخرى .

وفي الطابق الاسفل كان حال يتحدث تليفونيا قائلا : « اسمعي يا صغيرتي لن أستطيع المجيء هناك الليلة ... كلا حتى ولا في وقت متأخر ... سوف لا أحضر ، هل فهمت ... ان لدينا شجرتنا وكل شيء »

وأعيدت السماعة الى مكانها بعنف وصاح منادي من في الطابق العلوي : « يا أمي ـ يا أمي ـ انتما الاثنان الموجودان في الطابق العلوي ، هل لكما أن تنزلا وممكما معدات عيد الميلاد ؟ ولا تنسيا النجم » .

فافترقا وابتسما ، لقد كان من المستحيل ألا تمتلىء النفس بالأمل في هذا اليوم ، يوم عيد الميلاد ، فان هذا في الواقع كان كل ما يرمز اليه النجم .